



صور أوربية سريعة بقلم عابر سبيل

وأخيراً سافرت الى أوروبا!

اقول « أخيراً » لأنني فطرت على كره السفر ومقت الانتقال فلا اسافر الا مضطراً وقد آتت في مصر ثمانياً وعشرين سنة قبل ان زرت الاسكندرية ولما زرتها في صيف ١٩٢٧ قابلت فيها عظيماً من عطاء مصر فاعرب لي عن استنائه لعدم زيارة تلك المدينة الجميلة قبل ذلك العام وسألني عن صحة الخبر وقد سمعته من بعضهم فأيدته له قال وكيف تملل هذا التقصير نقلت ان عقيدتي في السفر كعقيدة قدماء العرب فهو قطعة من المذاب. قال ولكن هذا كان صحيحاً لما كانوا ينتطون الابل ويضربون في بطون القنار في فصل القيظ وأيام الشتاء وهم عرضة للجوع والعطش أما اليوم فقد توافرت أسباب الراحة والرفاهية في السفر برّاً بالقطرات والسيارات وبحراً بالبواخر الفاخرة الحاوية لما يكفل دعة العيش. فقلت ان عذابي في السفر ليس من تعب البدن ولكنه من تعب الاعصاب حتى قبل موعد السفر بيّام

ولكن الاطباء أصرّوا على سفري الى فيشي لاستشفي بها فلم أجد مناصاً من الطاعة والاذعان وسأعود الى الكلام عن الاستشفاء بمياه أوروبا المعدنية

ولا اتصد ان اصف في هذه الرسائل ما زرت من مدن وبلدان ومتاحف واعلام فهذا كله مطبوع في كتب الاسفار والرحلات العربية والافرنجية ولكن سأقتصر الكلام على ما وقع في نفسي من مشاهدات رأيها لأول مرة واستنتاجات استنتجتها من محادثات وملاحظات وأقوال سمعتها او نقلت اليّ فأرسم صوراً متفرقة لاضابط لها وقد لا يكون بينها من رابطة سوى ضف اليد التي رسمها

وطبعاً ركبت باخرة من يور سيد الى مرسيايا فسكا الحديد ولم أصب بدوار البحر ولا أصمت حقائبي وظلّ جواز السفر ومائت الاوراق في جيوبي ولبنت فيشي سلباً ساقياً وعدت من أوروبا كذلك. ولكن لا يقرأ القارىء بعد هذا شيئاً آخر عن السفر نفسه وتفصيله من غسل الوجه وتنشيف البدن الى لبس الثياب وركوب تاكسي فالقراء صاروا

يعدون هذه التفاصيل التي تكاد تكون واحدة لمعظم الناس ولا بد لي هنا من كلمة ثناء على جو اوربا فاني اكره الاجواء القاتمة والكثيرة المطر وأعشق جو مصر الصافي ولا اطيع ما يحجب زرقته ابديعة من السحب الغنية في ايام الشتاء. وقيل لي قبل ان سفر ان اوربا كثيرة النسيم والمطر وشديدة انموا صلب ولكني لم ارجو ما ولا ابصرت مطراً الا في الايام الثلاثة الاخيرة من رحلتي خصوصاً في مرسينيا وانا عائد منها. اما في ما بقي فكان جواً صافياً وشمساً مشرقة حتى في لندن وسواها من بلاد الانكليز فاستطعت ان اتضي الوقت كله في التخرج والطواف. وقد قيل لي ان صيفاً كهذا لا يتسع به الاوربيون الا مرة كل خمسين سنة او مائة فما لسوء حظهم!



اعظم ما وقع في نفسي بعد ما استقرت في المقام في فيشي اربعة امور وهي (١) مظهر النظافة العامة في كل شيء وكل مكان و (٢) نصيب المرأة الاوربية من العمل التجاري والصناعي علاوة على الزراعي و (٣) سلوك الجماهير وأديها و (٤) شيوع قراءة الصحف

النظافة

أما النظافة فمادة لجميع مدن أوروبا التي زرتها وقد زرت نحو ثلاثين منها فالشوارع والارصفة والمحطات والحدايق والبيادين نظيفة جداً ليس فيها ورق ولا فضلات ولا علب قرصية غير ان طول الجفاف آل الى سقوط ورق الشجر وهو كثير في شوارعهم وبياديتهم فكان هذا الورق هو كل ما يراه سالك تلك الشوارع مما يكفئ

أما في الشوارع ونحوها والبيوت فالنظافة متروكة لمن يريد من البيوت والشوارع والبيوت أجرة الزول فيها على حين غرماً للطعام والميت ولا تقل في نظافتها عن اكبر الشوارع في كل

شيء نظيف في غرف النوم وغرف الطعام وغرف الجلوس وفي الحدائق الخ ويستثنى من هذا كله منظر رأيت في جهات رتشمند بجوار لندن وكنت قد قرأت عما يشبهه في صحف انكلترا على سبيل التصح نارة والتفريع أخرى فقد ابصرت في ظلال الشجر على ضفاف نهر التاميس فضلات المتزهين من ورق وعلب لحم ونحوها وكان منظرها قبيحاً تنبؤ عنه العين فاستغربت ان يكون ذلك في بلاد اشتهر أهلها برفق الواجب وحب النظافة والنباهاة بحسن حراجهم وأنهارهم وبريتهم وهي حتماً بدية تسحر الالباب ولا استطع ان اصف مبلغ النظافة في الاحياء الفقيرة من المدن الكبرى كلندن وباريس لأنني لم ازر تلك الاحياء فيها ولكني رأيت بعض هذه الاحياء في مدن أخرى كبراغ

وزورخ وجنوى وروما وأقول حقاً إن منظرها من الخارج نظيف بشرح الصدر ويقر
العين حتى الازقة الضيقة القديمة جداً في جنوى فاني لم أر فيها فضلات أو أقداراً أو ورقاً
تمايراه ائمة في المرشوارخنا كشارع عماد الدين وشارع نواد وشارع المتاخ في كثير
من ساعات النهار

المرأة في سمرانه العمل

أما نصيب المرأة الاوروبية من العمل التجاري والصناعي فكثير لم نألفه في الشرق .
نعم ان المرأة عندنا تشاطر الرجل العمل الزراعي في القرى والحقول ولكن نصيبها من غير
العمل البيتي في المدن لا يزال قليلاً لحسن حفظها وحفظ الرجل الشرقي . فان مزاحمة احتيا
الاوروبية للرجل آلت الى مشكلات دقيقة في بلدان كبريطانيا حيث يكثر عدد العال
العاطلين ولكنها لم تأت بهذه النتيجة عنها في بلدان أخرى كفرنسا ففيها ترى المرأة
تشارك الرجل أو تحمل معه في ادارة الفنادق والمخازن والعمل في مكاتب سكك الحديد
والمصانع علاوة على العمل الزراعي وقد تبعت بعض هذه الاعمال فالفيت المرأة تهض بها
بدقة ونشاط ومهارة تستوقف النظر في بعض الفنادق تتولى الزوجة استقبال الضيوف
وقمين الغرف والإشراف على أعمال الخدم وراحة المقيمين في الفندق ونظافة الغرف
وضبط الحسابات واخراج فواتير الضيوف بدقة مدهشة في حين ان الزوج يقم في المطبخ
لملاحظة طبخ الطعام واعداده وشراء مواده أو مراقبة هذا الشراء

وقد رأيت معظم مخازن نيشي وبعض منها فروع لمخازن باريس المشهورة يد لساء
يتولى بعض منهن الادارة والبض الآخر البيع والبض الحساب وقبض المال والحسابات
منهن يعملن أعمالهن بسرعة ودقة غريبتين

ذهبت مع صديق الى مخزن يبيع مصنوعات زجاجية فاخرة فاشترينا مقداراً منها
تركناه في المخزن على نية العودة بأشياء أخرى تضم الى هذه في صندوق واحد لشحنها
الى مصر فلما عدنا احتلط الامر على صاحب المخزن ونسي بالنكل منا من المشتري وما
دفعه من الثمن ولكن ابنته وهي شابة اسرعت الى نجدته فنصمت القطع وحسبت الأثمان
ما تقدم منها وما تأخر بسرعة غريبة وبدقة تامة وأنقذت الموقف

وهناك مخازن كبيرة ليس فيها رجل واحد يعمل في خدمتها بل ان كل المال فيها
من نساء وبنات . والظاهر ان فرنسا مضطرة الى هذا بحكم ان الزيادة في عدد أهلها
للتجاري الزيادة في السئل المطلوب وهذا يسئل كثرة الهجرة اليها من ايطاليا وسواها
من البلدان المجاورة لها لسد النقص الواقع في الاعمال ولاسيما الزراعية

ادب الجماهير

ولا يسع من زور مدن اوربا الا الاعجاب بما يرى من سلوك الجماهير فيها واتجاه كل منهم الى قضاء مصلحته بدون ان يعترض فصلحة غيره وبأقل ما يمكن من الجلبة والتبصراء. وقد كنا في فيشي نحو اربين التت زائر للاستشفاء علاوة على اهل المدرسة وموظفي الفنادق ومستخدميها وهي اكثر من متي فندق وكنا نجتمع غير مرة كل يوم على الياييع لشرب الماء وتضيت هناك ٢١ يوماً لا اذكر ان رأيت فيها شجاراً او سمعت جلبة وضجة. وقد يملل هذا بان المجموع هناك كان بالاجال من طبقات راقية في الشعوب التي يتألف منها وهو صحيح ولكن هذا اندي شهدته في فيشي شهدت امثاله في مدن اخرى تحوي طبقات متفاوتة وفي احوال اشد من التي كنا فيها في مدينة الاستشفاء والماء.

ومعرفة ماللره من الحقوق وماعليه من الواجبات أمر متأصل في نفوس الاوربيين على ما رأيت فيهم عند اجتماعهم لشراء تذكار السفر في المحطات او التيارات او لتقيام بسل ما يصطفون صفاً اللاحق وراء السابق لا يحاول أحد منهم التقدم على من سبقه مها كان السبب ولا يسبح الواقفون لاحد ان يتطدى موقفه الاصيلي

وفي قطرات المزور اي سكة الحديد تحت الارض في العواصم الكبيرة يقف الذين يريدون ركوبها في محطاتها منتظرين خروج آخر راكب من ركبها قبل ان يدخل واحد منهم للجلوس فيها وهكذا في مركبات الاتوبيس وغيرها وبطول بي المقام اذا حاولت ابراد الشواهد الكثيرة في بيان ما تقدم هنا كسلوكهم في التيارات والمحلات مما هو معروف ومشهور

سريع قراءة العصف

وقد استوقف نظري كسحاقي عظم الأقبال على قراءة الصحف وكثرة غدد الذين يطالعونها في بلدان اوربا على تفاوت منازلها في الثقافة والتجارة والصناعة فقد أدهشني ان ارى في مدينة صغيرة كفيشي اكوام الجرائد الفرنسية والانكليزية والمجلات في كل مكان والناس يتقاطرون على شرائها من الصباح المبكر فاذا جاء بعد الظهر وسلت جرائد اخرى فيكون نصيبها من الرواج نصيب الاولى ويشكر الاسر في المساء فيجلس اناس في حديقة الكاترينو او ماضي الياييع وكل منهم يحمل جريدة او اثنتين يطالع ما فيها والنساء في ذلك كالرجال

وشهدت في لندن ما هو اعظم من هذا ففي الفندق الذي زلت فيه «كشك» ليح الجرائد امام غرفة الطعام الكبيرة تدبره امرأة وتباع فيه اشهر الصحف. وفي لندن ينظر

ضيوف الفنادق عادة فيها لان الفنادق تمتلئ بأجرة المبيت ونحن الانظار معاً فكنت أرى كل رجل يدخل غرفة النظام يحمل جريدة معه. وجلت في صباح ذات يوم في غرفة تطل على الكشك فآرأيت رجلاً يمر به الى غرفة الطعام الاويشترى جريدة وكان بعض منهم يشترى جريدتين ولم تكن النساء تشتري كالرجال لان معظمهن كان مع أزواجهن أو أبائهن فيقرآن الصحف معهم.

واكشاك الجرائد منتشرة انتشاراً كبيراً في مدن القارة الاوربية وفي كثير من الفنادق. وبعض هذه الفنادق يضع كل يوم في غرف النوم نسخاً من صحف محلية يكتب عليها انها هدية من ادارة الفندق الى انضيف الذي يشغل الغرفة.

أما منظر سائبي سيارة يطالع جريدة في ضوء مصباح شارع وجرسون قهوة يحذو حذوه في ساعة الفراغ فهذا أمر شائع في أوروبا شيوعاً يجعله من الاشياء المبتذلة التي لا يعنى احد بها.

وكنيت في فينا — وهي عندي أجل مدن أوروبا وأهلها من أفضل خلق الله مناب ومكارم أخلاق — وفيها أنا طائد من زيارة كنيستها الكندرائية للقديس اسطفان في مساء الاحد وكان ذلك في اثناء أزمته السياسية التي نشأت عن نزاع الوطنيين والاشتراكيين ويوم تقلد الهرشور لرئاسة الوزارة — سمعت باعة الصحف ينادون بلحق اطله لجريدة النيوفري ريسه والصحف في فينا لا تصدريوم الاحد فرأيت الجماهير تهاقت على شراء الملحق تهاقاً مدخشاً وكنيت أرى الرجال والنساء يخرجون عن الملحق من جيوبهم ويفضون عليه بأيديهم قبل وصول البائع اليهم حتى اذا وصل خطفوا الملحق من يده وأعطوه الثمن وهو يواصل السير وبعد دقائق نفذت النسخ التي كانت بأيدي الباعة قبل ان ينيبوا عن ناظري.

هذه أمور أربمة كانت في مقدمة ما ارتسم في ذهني على آر وصولي الى أوروبا واستقراري فيها وظللت اتبها في رحلاتي الكثيرة فألفيتها تكاد تكون عامة على تفاوت في مبلغها طبعاً وكان هذا التفاوت في بعض منها قياساً لي أقيس به مستوى الحضارة في كل بلاد من البلدان الكثيرة التي زرتها.

وبالطبع أن طول الاقامة آل الى رسم صور أخرى على ألواح الذهن ساحاول تصويرها للقراء بغير نظام على نحو ما أتبع لي الاطلاع عليها وعلى قدر ما تركت من وقع في النفوس. أما التفصيل فليس لي شأن فيه فمن شاءه فيلرجع الى كتب الرحلات المطولة

خليل تايت